

نُشوء المَدين

عاش الانسان قرونا عديدة لا يعرف غير حاجاته المادية ولا يشغله شيء غير التنازع على البقاء . عرف العمل قبل أن يعرف التفكير لأنه كان مضطراً إلى أن يلائم بيئته الطبيعية قبل أن تنوافر له القدرة أو أوقات الفراغ لكي يحاول فهمها

وعلى توالى الزمن ، ظهرت ملكة التفكير فى الانسان وعمادها الذاكرة ، فساعدته على تقليد لغة أسلافه وصفاتهم العقلية . وهنا نشأت اللغة ، وأخذ الانسان يمتاز عن الحيوان كانت اللغة هى البذرة فى الثقافة التى هى النتاج الحى لتفاعل عقل مع آخر ، ومحصول الافكار والمشاعر ونواحي النشاط المشتركة بين العقليين . وبدون العمل لا تسكون هناك ثقافة ولا تقدم فى الذكاء . ولما انتشرت الثقافة زادت فى تفوق الانسان على الحيوان حتى أصبحت ضمن التقاليد الاجتماعية التى اعتادها الانسان ببطء وثبات

توصل الانسان إلى المعرفة وأصبحت ضمن ضرورياته التى يستعين بها على العيش ، لانه كان مضطراً الى معرفة المحيط الذى يعيش فيه حتى يجد ملجأ يأوى اليه من الوحوش ، وطعاما يمنع به جوعه . الا ان عقل الانسان كان فى طقوله ، فلم يكن فى استطاعته معرفة كل ما يحيط به . وفى سعيه الى سد هذا النقص توصل الى السحر . وبمقتضاه اعتقد الانسان ان لجميع قوى الطبيعة شخصية وارادة مثل ما عنده من الشخصية الخاصة أو الارادة الذاتية من حيث كونه عاملاً شاعراً ولم يكن الانسان يدرك الفرق بين الكيان الحى وغير الحى فكل ما يتحرك أمامه حى وعلى ذلك فهو مرید . فالشمس التى تشرق وتقطع السماء وتغرب والرياح التى تهب والرعد القاصف . كلها فى عرفه شبيهة به فى غدوه ورواحه ونومه وبطشه

ولما كان الانسان بحكم حاجته الى حفظ ذاته ونوعه مدفوعاً الى استرضاء هذه القوى التى تتسلط على حياته فقد تملقها وعبدها وتودد اليها بمختلف الهدايا كما يتودد الى رئيس قبيلته وذوى النفوذ فيها

خيل اليه أن هناك هالة من الارواح تحيط به ، فاضطرب ، وتولاه الفزع ، وعمد الى السحر يستعين به على استخدام هذه القوى ، وتوهم أنه اذا قلد المطر فى نزوله ، فالمطر لا محالة نازل ، وانه اذا جمع أفراد قبيلته وألبسهم أوراق الشجر ، اخضرت الارض . وذهب به الظن الى أبعد من هذا فتصور انه اذا أراد أن يؤذى أحداً يكرهه فعليه أن يعتمد الى لباسه الذى كان يلبسه فيحرقه معتقداً انه اذا فعل ذلك أصاب عدوه ما أصاب الرداء

وبمرور الزمن تطورت الجماعات البشرية فبعد أن كانت تعتقد أن كل الأرواح شريرة يجب التمسك بها من طريق السحر ، أخذ عامل الخوف يضعف شيئاً فشيئاً ويحل محله الخضوع والاحترام خلف العبادة محل السحر ، وتطور الإنسان في هذه الأدوار قائم على تطور فسكرته عن الروح ابتداءً الإنسان ينظر إلى الروح كشيء متعلق بالأنفس يترك الجسد ثم يرجع إليه ، أو كشيء يفترق عنه ولكنه مع ذلك ضروري للإنسان . وعبادة أخرى نظر إلى الروح كعنصر غير طادي . وترجع هذه الفكرة إلى رؤية شخصه في أحلامه يعمل ويتحرك ، ورؤية الأشخاص الآخرين . وإذا جرح أحد من أفراد القبيلة وذهب وعيه كان الإنسان يخال أن روحه هجرت جسمه ، فكان يحاول أن يميدها إلى الجسم موجه صلواته ودعواته إليها ، راجياً إياها أن ترجع ، فلم يستطع التمييز بين غيابها الوقتي ورحيلها النهائي

كانت فكرة الموت في الواقع غريبة عن عقلية الإنسان مما زال هنالك كثير من الهمجيين لا يعرفون أن الموت شيء طبيعي وضروري ، بل بالعكس ينظرون إليه كحدث غريب غير طبيعي ناتج عن مؤامرة الأعداء أو عن السحر . كان الإنسان يعتقد أن الميت قد ذهبت روحه أو نفسه أو أي شيء آخر ، ولكن ذلك قد يرجع ثانياً إلى جسمه في أي وقت . لهذا اهتم الإنسان بحفظ جثة الميت وذلك بتركه عند ما يموت في كوخه أو مغارته حيث يبقى مع الأحياء من أسرته . ولكن نظراً لتألم الأحياء لوجودهم قرب جثة الميت ، كانوا يضعون الجثة خلف الشجر أو في مكان آخر تكون فيه بعيدة عن أي ضرر . وكانت نظرة الإنسان إلى الميت نظرة حب . فكان يقدم إليه الطعام ويعتنى به وخصوصاً الجمجمة . ويسمى هذا الدور بعبادة الجثة

ثم انتقل الإنسان إلى الدور الثاني وهو الدفن أو ما يشابهه ، حيث ابتداءً يخشى الميت ويهاب عودة الجثة أو الروح ، ولكي يتلافى شوكتها توصل إلى حفر مكان ثم وضعها فيه وغطاها بطبقة من التراب . وكان يضم أحياناً قطعة كبيرة من الحجر عليها للتأكد من عدم عودتها . ولظنه أن الميت يستمر حياً في قبره كما كان يعيش على الأرض ، كان يزوده بالأسلحة والآلات والأطعمة وغيرها من الضروريات اللازمة لسكنه

لقد كانت الجثة تعيش في الكوخ مع العائلة . ثم انتقلت إلى المعيشة مع أجدادها بالقبر . ويسمى هذا الدور بعبادة الروح

وفي الدور الثالث حاول الإنسان أن يبعد الروح بحيث لا يستطيع إفلاقه مطلقاً ، فتوصل إلى حرق الجثة لينعما من زيارة مساكن الأحياء . وفي هذا الدور أُنعت فكرة الإنسان عن خلود الروح . ولا شك في أنها تمتاز عن فكرة البعث التي كانت نتيجة الدور الثاني . ويسمى الدور الثالث بعبادة الروح الحقيقية

راينا مما تقدم أن الالهة كانت مجهولة . فلم يعبد ويقدر الإنسان حينذاك الا جنث
أصدقائه وآبائه

وقد كان الله في المبدأ روحا قوية مسالمة قادرة على المساعدة التي يرجى منها الكثير . ثم لما
ارتقت الزعامة والملوكية ، كان لها تأثير عظيم على فكرة الألوهية . كان الملك يعتبر الها ذا أهمية
عظيمة بعد أن يموت . وكانت قوة الآلهة تزداد وفقا لزيادة قوة الملك أو الزعيم ، كما أن الملك الأقدم
والأكبر غموضا يعتبر أكثر قوة في مرتبة الآلهة

وهكذا نمت الآلهة شيئا فشيئا وأخذت تتحرر من الأرواح بسرعة عظيمة . وكان هذا التطور
الارتقائي ينمو وفقا لنمو المعابد والرياسات الدينية . وعلى ذلك كانت الآلهة في نظر الإنسان خلال
هذا التطور كشيء غير مادي ، أقرب الى الروحية منها الى البشرية في شكلها وطبيعتها . ولهذا ميزها
بصفات القوة وجسامه الحجم وكثيرا ما مثلت في الشمس والقمر والقوى الطبيعية . ولكن قوة هذه
الآلهة لم تصل الى تعلم القدرة في دور تعدد الآلهة . لأن التعدد يحدد من سلطة كل منها

كان الدين ، ولا يزال يعتمد على عناصر ثلاثة — المعابد — والأصنام — والكهنة — ومن
المحتمل أن القبر كان أول صورة للمعبد لأن الميت كان يترك في السكوخ الذي يقطنه حيا ، حيث
يقدم اليه ما يحتاجه الحي وتؤدي له فروض العبادة . فاستلزمت هذه الاكواخ بعض العناية . فكانت
تزخرف ، ومن ثم أخذت تعظم تدريجيا . وكلما عظم المعبود زاد الإنسان من الفن والمهارة في بناء
وزخرفة مسكنه ، حتى أصبحت عظمة المعبد تتوقف على عظمة الاله

أما الاوثان الأولى فلم تكن صورة للميت ، ولكنها كانت الجسم نفسه يحفظ أو يحفظ . ثم
أصبحت صورة تمثل الاله

وعندما نمت فكرة الألوهية ، وأعتاد الإنسان النظر الى الوثن باعتباره ممثلا للاله ، كان من
السهل الاكثار من هذه الاوثان فازداد الالتباس بين الآله وصورته ، أيهما الحقيقي وأيها الصنو
بعد أن كان الحجر يوضع على القبر ليعوق الجثة عن القيام ، أصبح يمثل الجثة نفسها . وبعبارة
أخرى يمثل الروح أو الاله . ثم أخذ الإنسان يغير من وضع شكل الحجر حتى أصبح وثنا تقدم له
الصلاة . ولما رسخت فكرة قدسية هذه الاحجار بعقلية الإنسان . كان من الطبيعي تقديس
الاحجار المشابهة للاحجار الاصلية باعتبار أنها مسكونة بروح أو اله ، ثم أتى على الإنسان حين غمض
عليه التمييز بين الحجر والروح ، والسلف والاله . وهكذا أصبح الحجر والروح متصلين ببعضهما .
حتى أصبحت العطايا تقدم للحجر نفسه ولذلك عند ما استعمل الحجر المسطح للتضحية بالقربان
لم يشعر المتعبدون أنفسهم بهذا الانتقال

والكهنة هم العنصر الثالث في الدين الذي زاد من أهمية وقوة الآلهة . لأن الكهنة هم الطبقة التي ينحصر عملها في تعظيم واجلال الآلهة المعبودة
وللكهنوت أصناف . الاول له صفة الملكية Quazi—Royal والثاني له صفة الخدمة Quasi—Service

يرجع الاصل الاول للكهنوت الى اعتبار رئيس القبيلة كأبن أو ممثل للروح اله القبيلة . له وحده الحق في الاقتراب من الآلهة وتقديم العطايا . فاذا أراد فرد شيئاً من الآلهة فلا بد لذلك من وساطة رئيس القبيلة ، لأن الأخير قريب وصديق الروح المقدسة فهو يعرف أفكارها وعاداتها . ومن هنا كان هؤلاء الرؤساء كهنة بطبيعتهم . فهم مقدسون بحكم الوراثة ، لأن هناك علاقة خاصة تربطهم وأولادهم بالهة القبيلة . فدماؤهم من دماء الآلهة

يستدل مما مضى على أن آلهة الجماعات الصغيرة أو الأسر في أول أشكال الدين هي أسلافها الميتة . ويقوم رب العائلة بمهمة الكاهن ، يقترب من أرواح الأسرة أو آلهتها بالنيابة عن زوجاته وأولاده وأتباعه . ولما ارتقت القبيلة قويت مهمة الرياسة وأصبحت أرواح أو أسلاف الأسرة المالكة آلهة يمثلها الرئيس الموجود وأقاربه . ومن ذلك اتصفت السلطة الكهنوتية في أغلب الأحوال بسلطة الملك أو الزعيم

ومن التقاليد التي رسخت على توالي الزمن ، عدم منح الزعيم أو الملك سلطة الحكم الابطحفال يمثل فكرة الخلق كما تعتقدها الجماعة . فالملك أو الزعيم ينتسب للآلهة ولذلك يمنحه الشعب قوة الخلق لأنها تعتبر ضرورية في تأدية واجباته الملكية ، وفي الاحتفال المقدس يمثل الرئيس دور الخالق ، وذلك بممارسة عدة طقوس سحرية يخلق بها الطعام للرعية في شكل نباتات أو حيوانات ، والقيام بعدة أعمال من شأنها حفظ المحاصيل والأغنام

وكان للنوع الثاني من الكهنوت صفة الخدمة Quari—Service ويرجع أصله في أنه لما كانت العشيرة مضطرة لتقديم العطايا للأموات عينت الكهنة أو الخدم ليتحدثوا من العطايا المقدسة . وهنا كان الأغنياء يتفنون للقبر عينا لحفظ العطايا ولإمداد الكاهن بمعاش أو مرتب . وكان هذا النوع الكهنوتي وراثيا لضمان استمرار نظامه . ولذا كثيرا ما استمرت العبادة التي تؤدي بالقبر مئات السنين

وعلى توالي الزمن ظهرت الاحكام ، ونمت العادات والطقوس وأصبح الكهنة حافظة التقاليد المقدسة ، يعرفون وحدهم كيف يقتربون من الآلهة وفي أماكنهم معرفة ما تخفي الآلهة من سرور وحزن فبدونهم لا يستطيع صايد أن يقترب من الآلهة ولذا أصبحت لهم أهمية فاقت غرض وجودهم

كان الانسان يرى أنه ليس هناك آلهة غير جنث أسلافه وأرواحهم ، ولم يكن الدين غير القيام
بعدة طقوس وتقديم بعض العطايا لهذه الجنث أو الارواح . ثم احتاج الى عناصر عظيمة وآلهة
مختلفة ، وأهم هذه الآلهة رب الزراعة

كانت فكرة دفن الميت ترمى الى حبس روحه أو جنثه وذلك بغمرها بالأتربة ، ولكن لم يكن
ذلك كافياً ليجعله على يقين من عدم ظهورها ، فكان يضع غالباً على القبر أو الأكمة حجراً ثقيلاً .
ومن عملية الدفن هذه بدأ حرث الأرض ، وتعريض الأرض السفلى للهواء . واستئصال النباتات
غير الصالحة . وكل هذه المقدمات الأولى الضرورية للزراعة كانت عرضية . ولما كان من عادة
الانسان تقديم الأطعمة والاشربة لموتاه بوضعها على القبور وكانت من نفس ما يتناوله الأحياء أي
لحوم الحيوانات والطيور المقتنصة ، والأسماك والقواكه والحبوب الناضجة كالقنول والحنطة .
الى هنا كان الانسان يزرع البذور بدون علم منه على أرض محروثة جديدة خالية من النباتات غير
الصالحة ، ومسمدة بدماء لحوم الذبائح المقدمة ومن شأن هذه البذور سرعة النمو والنضوج في
أقل زمن ممكن مما استرعى انتباه الانسان . وبما أنه لا يعرف شيئاً عن البذور والمواد أو طبيعة
الأرض فقد استنتج بحسب ما تراءى له أن الروح الخفيفة القوية المقبورة سرت بما قدم لها من لحم
وحبوب فردت هذه العطايا من نفس نوعها ، فضاعفت مقدار الحبوب مئات المرات . لاشك أن
الانسان كان مبهتجاً تحت مثل هذه الظروف بقطف واكل الحبوب التي نمت بالمصادفة على قبور
موتاه . وعلى توالى الزمن وصل إلى توسيع نطاق الزراعة . وكانت الخطوة الأولى نحو هذا التطور
ناجمة عن ملاحظة فلاح البذور والحبوب في القبور الحديثة لاعلى جميع القبور . وكان يلوح له
أنه حالما ينضج النبات الطبيعي تفنى قوة الروح . لذا وجد من المستحسن الاعتماد على الارواح
الجديدة دائماً للأغراض الزراعية وربما نشأ عن ذلك عادة إنشاء قبر جديد سنوياً في أكثر
الافاق الملائمة للزراعة . ولم يكن هذا القبر الجديد لشخص مات في ذلك الوقت بالمصادفة ، بل
لضحية مقصودة ذبحت لتمد الانسان بروح الزراعة « آلهة صناعية » ، ولكي تجعل الحنطة تنمو
بسرعة وبمقدار عظيم . ثم توصل الانسان الى أنه اذا زاد في حفر مساحة الأرض فان الحبوب تنمو
حول قبر الضحية المقدسة كما تنمو عليه . وعلى ذلك اتسع الحقل المزروع وزادت عملية الحرث التي
يقوم بها الانسان الى اتساع الأرض المحروثة فأصبحت قبراً من الوجهة النظرية وحقل من الوجهة العملية
كانت الضحية في الاصل ملكاً أو رئيساً مقدساً أو ابناً أو ابنة ملك أي أحد أفراد السلالة
المقدسة التي تجري في عروقها دماء الآلهة أو الملوك . ثم اقتضت على أحد الافراد فاختص بالعناية
وعومل كما تعامل الآلهة أو الملوك ثم استبدل بالشخص حيوان (Theanthropic)

عند ما ابتدأ الانسان يتقدم بعض الحيوانات ظهر نظام الطولية . ويتكون هذا النظام من مجموعة طقوس تسمى الطبو . تمارسها الجماعة لأن أفرادها يعتبرون أنفسهم أقارب بعضهم لبعض . ويعتقدون أنهم من سلالة الطوطم الذي يعتقدونه فهو مصدر هذه القرابة وهو غالباً حيوان أو نبات . تجعل له الجماعة رمزا واسماً عامين . فان كان الطوطم ذئباً فان كل أفراد العشيرة يعتقدون أنهم من أصل ذئب وعلى ذلك ففهم بعض خواص الذئب

يعتبر الطوطم إله القبيلة أى موجودها وحاميها ، فهو مبدأ الجماعة الوحيد وقوة ارتباطها الدائمة وروحها العظيمة . وهو القوة الاجتماعية الموروثة في الجماعة ولذلك فان النظام الطوطمي ساعد الانسان الفطري على أن يعيش في جماعات منظمة يندر فيها القتل والسرقة ، بعيدة عن الفوضى والفساد . واعتمدت الأسرة الاولى على الصلات الطوطمية التي منعت الزواج الداخلي وأباحت الزواج الخارجى وبالتالي حددت الصلات الجنسية للأفراد بعضهم ببعض

وكذلك اعتمدت القوانين الفطرية على النظام الطوطمي فكان القاتل يعد نجساً محرم على سائر أفراد القبيلة النظر اليه ، كما كانت تمنح الممتلكات تترك تحت حماية طقوس الطبو عند غياب صاحبها . فاذا رغب إنسان في حفظ ملابسه أو منزله أو طعامه فما عليه إلا أن يجرى طقوس الطبو عليها وبذلك تصبح في أمن

كان تأثير الطوطمية عظيماً في تقوية الروابط الاجتماعية وبعبارة أخرى في خدمة المدنية وتقدمها ، فهو أصل التعاون بين أفراد الجماعة والدافع على تضحياتهم بالمنفعة الشخصية في سبيل منفعة الجميع . والأفراد الخاضعون لطوطم واحد يعتبرون أنفسهم أقارب مستعدين لخدمة بعضهم بعضاً حين الحاجة . والصلة الطوطمية أقوى من الصلة الدموية . لأن الاولى أوجدت الشعور بالتضامن الاجتماعي وبالمسؤولية المشتركة فكل فرد مسئول حتى إذا احتاج الأمر للتضحية بحياته للانتقام إذا أصيب بقية الأفراد بضرر ، كأن هذا الضرر وقع عليه

في الواقع أنه كان لنظام الطوطمية شأن عظيم في تطور الجماعات ، فقد أوجد آراء حقوق الملكية وقدسية الحياة البشرية وعقدة الزواج

فل النظام الطوطمي شائعاً عند ما كان الانسان يعيش بالصيد والرعى ، فلما عرف الزراعة والتدجين اقتضى ذلك إقامة الانسان بمكان واحد لا يتحول عنه فعاقد ذلك على اختفاء الروابط الطوطمية وانتقال القبيلة إلى نظام التوطن ، فأصبحت مرتبطة بقطعة من الارض ، فخلت الرابطة السياسية محل الرابطة الدينية ، إلا أن الزراعة أوجدت الثروة الثابتة ، وهذه ساعدت على وجود هيئة اجتماعية منظمة تتولى إدارة هذه الثروة . ومن ثم وجد رئيس يجمع بين الولافة الدينية والسياسية ووجد نظام للسكينة وأوقاف للمعابد وصار الدين عقائد ثابتة لا تتغير